

## مقدمة

إن الكتب والمؤلفات التي تعنى بتاريخ الطب والأطباء عبر العصور الإسلامية كثيرة ولا يمكن إحصاؤها إلا بشق الأنفس. وعلى رغم ذلك فسيظل التأليف والكتابة مستمرين دوماً وبلا انقطاع، لا شغفاً بالكتابة والتأليف فحسب، ولكن لأن موضوع الطب والأطباء من الموضوعات المحببة لدى جمهرة العلماء العرب، وقلّ منهم من لم يؤلف كتاباً أو أكثر في الطب، إلى جانب تأليفه في الفلسفة أو المنطق أو الطبيعيات أو الفلك. كما أن صناعة الطب عند العرب أقدم من غيرها من الصناعات، واهتمامهم بها كان واضحاً، وأذكر في هذا المقام قول صاعد الأندلسي: «كانت العرب في صدر الإسلام لاتعنى بشيء من العلم إلا بلغتها وأحكام شريعته، حاشا صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب غير منكورة عند جماهيرهم لحاجة الناس إليها. ولما كان عندهم الأثر عن النبي ﷺ حيث يقول: «يا عباد الله تداووا، فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء إلا الهرم».

ولم يكن العلماء العرب مجرد نقلة للعلم الإغريقي كما يدعى المغرضون، فلم يكونوا كالثمل يجمع غذاءه ويخزّنه ليستعمله وقت الحاجة، إنما كانوا كالثحل يجمع الرحيق ويهضمه ويخرجه عسلاً شفاءً للشاربين. ولعل سارتون قد أنصف العرب بقوله: «إن بعض المؤرخين يحاول أن يبخس قدر ما قدمه العرب للعالم، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئاً...»، ثم يقول سارتون: «إن هذا الرأي خطأ وأنه لعمل عظيم أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية ويحافظوا عليها ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قروناً عديدة».

وقال بيتر ياخمان المستشرق الألماني: «يمكن أن أشبه الطب العربي بجزيرة واسعة عجيبة واقعة في المحيط، ذات جبال عالية ورياض مزهرة وأنهار جارفة وبساتين قائمة، وإذا بالمكتشفين يجتازون البحر من جميع الجهات يرغبون في اكتشاف أسرارها، أما الجبال العالية والرياض المزهرة والأنهار والبساتين فهي رموز إلى أعلام الطب العربي وإلى مؤلفاتهم الرائعة البديعة، وأما المكتشفون الذين يجتازون البحر من جميع النواحي فهم الباحثون عن تاريخ الطب العربي وعوامله وتطوره، وهم هيئة تتألف من علماء بلدان مختلفة.. ويدل هذا الاهتمام العالمي بالطب العربي على أن الكتب الطبية العربية فيها قوة عقلية لم تزل تؤثر في الناس حتى يومنا هذا ولن تزال في المستقبل إن شاء الله. وأقصد بتلك القوة العقلية التي بدت في كتب أفاضل أطباء العالم الإسلامي قوة استقلال رأي الباحث... الخ»

ومنذ فتح الله على الناس بالإسلام، والعلوم تشهد نهضة شاملة، ولاشك أن لهذا أسباباً توجزها فيما يلي: أولها حرية الرأي العلمي بلا حدود، وثانيها: هو ما كان يلقيه العلماء من رعاية الحكام والولاة بل العامة والخاصة، أما ثالث العوامل فهي: استعلاء العلماء بعلمهم.

وإذا كان الطب بدأ بالترجمات، فإنه بعد مسيرة قصيرة حفل بالمؤلفات والإضافات. ويظهر ذلك في الآلاف من المصنفات التي كتبت عبر العصور الإسلامية. وفي كتابنا عن هذا الموضوع وتدارس هذا التراث الخالد بنظرة علمية موضوعية، نؤكد على أهميته، وليس هذا من قبيل لئى العنق إلى الخلف وإنما الالتفات إلى الجذور، والإفادة من محاسنها. وأول شيء يمكن استنتاجه من دراسة تاريخ فرع من فروع المعرفة والعلم والفكر العربى الإسلامى، هو الثقة بالنفس، وهى أمر هام و ضرورى، حيث هى الوسيلة الأساسية فى بعث النهضة العربية الإسلامية، التى تأخرت عن سلوك طريقها طويلا لأسباب عديدة متشعبة.

وفى ضوء اتساع الموضوع وتشعبه، فإن مجلدا واحدا لا يكفى لحصر كل هؤلاء الأطباء الذين عاشوا عبر العصور الإسلامية حتى نهاية القرن التاسع عشر؛ لذلك كان التقسيم واجبا ولازما، وقد تبين أن التقسيم الزمنى يقطع الاستمرارية والتواصل فى القراءة. لذلك فضلنا أن يكون التقسيم جغرافيا. وذلك بالرغم من عدم وجود هذا التقسيم إبان العصور الإسلامية الزاهرة، لكن انقسام الدولة الإسلامية إلى دويلات بعد ذلك - على رغم أنه لم يفقد الصلة العضوية للحضارة فى هذه الدويلات، إلا أن تباين ظروف الحكم والحكام انعكس على مسيرة النهضة العلمية فى كل دويلة.

وإذا كنا قد بدأنا بالجزء الأول عن أطباء مصر عبر العصور الإسلامية، فإننا نأمل أن نوفق، أن تخرج أجزاء أخرى عن بلدان الوطن العربى، وأنعشم أن يكون ذلك بالتعاون مع أحد الزملاء المهتمين بالأمر. ويضم هذا الجزء تسعة أبواب يقدم الباب الأول عرضاً تاريخياً لتعاقب العصور منذ الفتح الإسلامى لمصر حتى سنة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م. وفى هذا ما ييسر للقارئ تتبع نظم الحكم واختلافها من عصر إلى عصر، ويساعده على التعرف إلى أثر هذه النظم فى تطور صناعة الطب ونهضة التأليف فيها. والأبواب التالية تعرض لأطباء كل عصر من العصور، بدءاً بالقرنين الهجريين الأولين، ثم العصور الطولونى ثم الإخشيدى ثم الفاطمى ثم الأيوبى ثم عصر المماليك ثم عصر العثمانيين وأخيرا عصر أسرة محمد على.

وقد رتبنا الأطباء فى كل عصر حسب تواريخ وفياتهم. وحاولنا الرجوع إلى ما أمكننا الرجوع إليه من المصادر والمراجع لجمع البيانات والمعلومات عن كل طبيب، ومؤلفاته، ومكان وجودها، وطبعتها. وفى بعض الأحيان عرض مبسط لمحتوياتها.

ولقد جابهتنا مشكلة وجود طبيب عاش في أكثر من عصر من العصور مثل ابن النفيس مثلا، الذى جاء إلى مصر في العصر الأيوبي ولكنه عاش جزءاً من حياته في عصر الماليك بل إنه مارس الطب في البيمارستان القلاوونى. ولكن تدارسنا للعصور ككل، وتتبعنا للأطباء وطبقاتهم خلال هذه العصور يجعلنا نضع ابن النفيس مثلا ضمن أطباء العصر الأيوبي، وهذا ماحدث مع غيره مثل ابن أبى أصيبعة و الكوهين العطار اللذين ألقناهما بأطباء العصر الأيوبي.

أما من خدم الفاطميين من الأطباء أول عهده بالطب وكان جل إنتاجه وحياته فى العصر الأيوبي فقد اعتبرناه من أطباء العصر الأيوبي مثل أبو البيان بن المدور والرئيس هبة الله وأبو سليمان أبى فانة والشيخ السديد.

ولقد لاحظنا أن أطباء مصر عبر العصور الإسلامية لم يكونوا بمعزل عن الأطباء فى الأمصار الإسلامية الأخرى، بل كانوا مترابطين متواصلين، وفى مؤلفاتهم نجد إشارات ورجوعا إلى مؤلفات أطباء الأمصار الأخرى، بل إنه كانت بينهم محاورات علمية كما حدثت بين ابن رضوان المصرى وابن بطلان البغدادى. أضف إلى ذلك انتقالهم بين أمصار الدولة الإسلامية، مثل عمار الموصلى وابن الهيثم وابن ميمون وغيرهم.

ولا مرأى فى أن ازدهار الدولة ونماء الحياة الاجتماعية والسياسية فيها قد أديا إلى ازدهار التأليف فى الطب. ويلاحظ ذلك الثراء الفكرى للأطباء فى العصرين الفاطمى والأيوبي. وتراجع الإضافات العلمية الجديدة فى التأليف فى العصر المملوكى، على رغم أن هذا العصر قد حظى بمن أقام البيمارستانات ورعاها. ولقد كان معظم أطباء هذا العصر من علماء الأزهر الشريف. الذين اتخذوا الطب حرفة جانبية إلى جوار تخصصهم الأصلى فى الفقه وعلوم الدين.

وتميز العصر العثمانى بنقص شديد فى إنتاج الكتب والمؤلفات الطبية، بسل زاد فيه الاعتماد على الخرافات والحزعبلات، ولعل هذا يعكس الحياة السياسية المتقلبة. والظروف الاجتماعية والاقتصادية المتدهورة فى ظل حكم الولاة الأتراك. ولكننا نرى أن حكم محمد على قد تميز بإنشاء المدرسة الطبية وإرسال العديد من أبناء مصر لدراسة الطب فى دول أوروبا. ومثل ذلك صحة كبرى، وبعد أن كانت المعارف والعلوم تتخذ اتجاهها واحداً من الشرق للغرب فى العصور الإسلامية الزاهرة، ثم توقفت التيار خلال عصور الانحطاط، فإن عصر محمد على تميز بنقل المعارف والعلوم من دول أوروبا إلى مصر. وظهرت الترجمات العربية لعديد من كتب الطب المؤلفة بلغات أجنبية، كما ظهرت مؤلفات فى الطب باللغة العربية.

وشارك في حركة التأليف والترجمة عدد كبير من الأطباء المصريين، وهي حركة تعد من أهم حركات النهضة العلمية في مصر، غير أنها انتكست بعد الاحتلال البريطاني عام ١٨٨٢ م، فقد جعل الاستعمار اللغة الإنجليزية هي لغة مدرسة الطب المصرية. ولكن التاريخ سيظل يذكر هذه المؤلفات وأسماء مؤلفيها العظماء. ومن الجدير بالذكر أن أحد الأطباء المصريين وهو الدكتور البقلي باشا قام سنة ١٨٦٥ م بإصدار مجلة اليعسوب بالاشتراك مع زميله الدكتور إبراهيم دسوقي بك، وكانت أول مجلة طبية تصدر باللغة العربية ويمكن لنا أن نتصور كم مجلة طبية كانت تصدر سنة ١٨٦٥ م في العالم كله. ولكنها نهضة لم تستمر، وقلت الزمام من أيدي المصريين.

وعلى رغم الانقلابات السياسية والتي عصفت بمصر عبر العصور المختلفة، فإن إنتاج أطبائها عبر العصور الإسلامية، كان جزءاً من الطب العربي الإسلامي الذي قال عنه ماكس مايرهوف المستشرق الألماني في كتابه «تراث الإسلام»: «إن الطب الإسلامي قد عكس ضوء الشمس الغارية في اليونان، وتلألاً كالقمر في سماء العصور المظلمة، وثمة نجوم سطعت من تلقاء نفسها، وأضاء سناها ظلمة هذه السماء، ثم أفل القمر وخبأ ضوء النجوم في فجر عهد جديد، لكن أثرها بقي في الحضارة حيا حتى الآن».

وإذا كنا قد بذلنا جهداً في إعداد هذا الكتاب، فهو جهد المقل، ولا ندعي أننا بلغنا ما نريد، ولكننا نرجو أن يتقبل الله عملنا، وأن يكون عملاً مفيداً ببناء لأبناء الأمة، آمليين أن يكون علماء ينتفع به. وإننا على يقين أنه كأي عمل إنساني يعتريه النقص والقصور، فنعتذر للقارئ عن تقصيرنا، فالكمال لله وحده.

والله من وراء القصد.

أ.د. كمال الدين حسن البتانوني

د. أحمد كمال الدين البتانوني

الجيزة في: ١٤٢٩هـ

٢٠٠٨ م

## تمهيد

### الطب والأطباء فى نظر المسلمين

إن من يكتب عن فضل صناعة الطب وأهميتها لا يمكنه أن يأتى بأفضل مما قدم به ابن أبى أصيبعة لكتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء حيث يقول: « فإنه لما كانت صناعة الطب من أشرف الصنائع، وأربح البضائع، وقد ورد تفضيلها فى الكتب الإلهية والأوامر الشرعية، حتى جعل علم الأبدان قرينا لعلم الأديان، وقد قالت الحكماء: إن المطالب نوعان: خير ولذة، وهذان الشيطان إنما يتم حصولهما للإنسان بوجود الصحة، لأن اللذة المستفادة من هذه الدنيا والخير المرجو فى الدار الأخرى، لا يصل الواصل إليهما إلا بدوام صحته وقوة بنيته، وذلك إنما يتم بالصناعة الطبية لأنها حافظة للصحة الموجودة، ورادة للصحة المفقودة، فوجب إذ كانت صناعة الطب من الشرف بهذا المكان، وعموم الحاجة إليها داعية فى كل وقت وزمان، أن يكون الاعتناء بها أشد، والرغبة فى تحصيل قوانينها الكلية والجزئية أكد وأجد».

ويقول الإمام أبو حامد محمد الغزالي: « وقد جعل النبى ﷺ تعلم الطب من فروض الكفاية بحيث يجب أن يكون فى الأمة من يعانى هذه الصناعة، ليحفظ صحة الإنسان، وإذا ما فقد هذا العلم، فإن الإثم يقع على كافة المسلمين ». ولقد عرف أبو منصور الثعالبي الطب بقوله: الطب استدامة الصحة ومروءة العلة.

وخصال الطبيب كما ذكرها ابن رضوان الطبيب المصرى على رأى أبقراط الإغريقى سبع :

**الأولى** : أن يكون تام الخلق صحيح الأعضاء، حسن الذكاء، جيد الروية، عاقلا، جيد الطبع.

**الثانية**: أن يكون حسن الملبس، طيب الرائحة، نظيف البدن والثوب.

**الثالثة**: أن يكون كتوما لأسرار المرضى لا يبوح بشئ من أمراضهم.

**الرابعة**: أن تكون رغبته فى إبراء المرضى أكثر من رغبته فيما يلتصه من الأجرة، ورغبته فى علاج الفقراء أكثر من رغبته فى علاج الأغنياء.

**الخامسة:** أن يكون حريصا على التعليم والمبالغة في منافع الناس.

**السادسة:** أن يكون سليم القلب، عفيف النظر، صادق اللهجة، لا يخطر بباله شيء من أمور النساء والأموال التي شاهدها في منازل الأعماء فضلا عن أن يتعرض إلى شيء منها.

**السابعة:** أن يكون مأمونا ثقة على الأرواح والأموال لا يصف دواء قاتلا لا يعلمه، ولا دواء يسقط الأجنة، يعالج عدوه بنية صادقة كما يعالج حبيبه.

